الملكات والشعر

— ١ —

يستطيع من يلمّ بتاريخ الأدب العربى أن يقف على كثير من الظواهر التى تردد فى العصور المختلفة وتتكرر فى آثار الاشخاص مع ما لمنتجات الأدباء فى كل عصر من صبغة خاصة واتجاه معين . ويستطيع الباحث فى تاريخ الأفراد سواء أكان ذلك التاريخ أدبياً أم سياسياً أن يقرر نزعة خاصة تسود الفرد وتغلب عليه حتى يعرف بتلك النزعة ويعدّ من أبطالها وممن اشتد تعلقهم بها . وربما كانت له ألوان أخرى من النزعات ولكنها لم تصل إلى درجة من القوة والظهور بحيث يتيسر لها أن تزاحم النزعة الغالبة وأن تكون لها مكانتها من تلك القوة وذلك الظهور — وليس ينازع واحد من الأدباء فى أن ابن خلدون كان بصيراً باللغة العربية متفقهاً فى اصول الفقه خاصة وفى العلوم الدينية عامة ولكن تنازع الملكة قد أثر تأثيراً قوياً فى معرفة الناس له وفى تقدير الباحثين حتى صار اسمه مقروناً بفقه التاريخ وعدّ ابن خلدون فى سائر الدوائر الأدبية وعند الباحثين مؤرخاً قبل أن يعد لغوياً أو فقيهاً أو غير ذلك مما بلغ فيه ابن خلدون درجة يعتدّ بها ، وكذلك الشأن فى حال الجاحظ فقد كان بصيراً بالدين متمذهباً بالاعتدال مبرزاً فى فنون التصانيف عارفاً بمكنون اللسان العربى ، ولكننا نعتبره أديباً ظريفاً فيه رقة وسلوة وفكاهة قبل أن نعده من الفقهاء أو المحدثين أو اللغويين أو نظار المتكلمين .

— ٢ —

فليس من شك إذن فى أن تزاحم الملكات أمر ثابت مقرر ، وأنه لا بد من أن يغلب على المرء فن خاص من فنون المعرفة . ويصل فيه الى درجة يعتبر من أجلها إماماً ومرجعاً فى هذا الفن ، وأن الملكات فى فنون مختلفة لا تتيسر لفرد ما ولا يمكن أن يكون هذا الفرد كاتباً جيد الكتابة ، وأن يكون فى الوقت نفسه شاعراً

جيد الشعر كما لا يمكن أن توجد ممن يشتغلون بمسائل المعرفة من يعتبر عمدة فى القانون وإماماً مع ذلك فى التاريخ ، وانما يدرس النابغون على أن بعضهم كاتب أو شاعر أو فيلسوف أو مؤرخ ، وربما يدرس بعض الأدباء على أنه موفق فى أسلوب خاص من أنواع الأساليب وأنه لم يتيسر له أن يحذق أساليب الكلام جملة وأن يجعل أسلوبه فى كل مقام مرناً ملائماً لما يكتب فيه موضوعات العلوم والآداب — ولهذا التزاحم فى الملكات لا يرضينا أن يقصد الشاعر الى دراسة ما تغاير ملكته ملكة

محمد قابيل

الشعر ، إذ يقع التزاحم بين الملكتين وليس من نتيجة لذلك إلا أن تضعف الملكة الثانية وإن كانت غالبة فى هذا التزاحم . فلا يصير الشاعر الى ما كان ينتظر له لو لم يقصد الى توفر على ذلك الفن الذى زاحم الملكة ووصل فى تلك المزاحمة الى حد التعجيز لها والاضعاف . وقد يكون هذا التزاحم نفسه علة قضاء على الملكة الشعرية فيحرم الوجود شاعراً ، والمجتمع الانسانى شديد التطلع للشعراء لما ينفسون من أعباء الحياة ويرفعون من أعباء الجد ، ولأن التحلل من الحقائق والخلاص من قيودها مريح ، ولأن الشعراء عمدتهم الخيال والشعر عماده العواطف وفى ذلك منتهى لهو النفوس وعبث الميول وتنشيط الأهواء وتغذية العواطف — أريد أن أقول إن معالجة مسائل الفلسفة ونظريات الاجتماع ومواد القانون وقوانين الطبيعة والكيمياء وغير ذلك مما تعوق الشاعر عن الوصول الى ما يستطيع أن يصل

اليه من رقة فى الاسلوب ودماثة فى اللفظ وروعة فى الخيال وتحليل للعاطفة ، وتعمى بآثار الشعور لما ينشأ عن مزاحمة حقائق العلوم وملكاتها لملكة الشعر ، فيلحق بها الوهن ويتطرّق اليها الضعف وتأخذ سبيلها الى التقلص والذبول .

— ٣ —

وليس أدلّ على ما سقتُه فى هذا الحديث مما نجده فى غير موضع من أمثلة الشعراء الذين لم يحظوا باحراز المنزلة الأولى فى باب المفاضلة عند الناقدين ، وأسفر النظر فى منتجاتهم من الشعر عن اعتباره من الأمثلة التى لا توجه اليها عناية ولا تستحق من المرء استظهاراً — فهذا بديع الزمان الهمذانى كان شاعراً وقد جُمع شعره فى ديوان ، وقلما يعنى به الشعراء فى الشعر ، وقلما يحفظ منه الأديب لمنفعته فى الأدب ، ذلك لأن شعره لتأثير ملكة الكتابة لم يصل الى درجة من الجزالة والروعة وتضمُّن المعانى السامية أو الحكمة الصادقة أو الصُّور المستطرفة أو العاطفة الثائرة ، وانما كان سهلا لا يمتدح فيه إكثر من المداعبة المقبولة والتظرف المعقول والملح التى تعلن عن ظرف البديع وميله إلى ما قد يشبه الخلاعة أو يجانس المجون ثم ما رغب فى التعمية به من الالغاز والأحاجى ومحسنات البديع — وهذه نماذج من شعره يقف منها القارىء على ما نلمحه من ضعف واقفار فى باب الاختراع وغير ذلك مما يعتبر علة لتزاحم الملكات . قال البديع :

قسما لقد نسج الحيا خلع الربا فأجاد نسجا
وشجاك لحنُ العندليـ ب ونغمة القمرىّ أشجى
واذا المروج مرجت فى أطرافهن الطرف مرجا
شبهت أنوار الربيـ ـع كوا كباً والروض برجا

وقوله أيضاً :

ياحريصا على الغنى قاعداً بالمراصدِ
لست فى سعيك الذى خضت فيه بقاصدِ
إن دنياك هذه لست فيها بخالدِ
بعض هذا فانما أنت ساعٍ لقاعدِ

— ٤ —

ولم يكن بديع الزمان الهمذانى بدعاً فى الادب العربى ، ولا كان وحده ممن بدا

فيهم تزاحمُ الملكات وغلبت عليهم الكتابة فلم يصلوا الى مرتبه راقية فى الشعر ، بل إن المعرى كذلك من تلك الامثلة التى تنازعتها ملكات شتى من الشعر والفلسفة والفقه والنحو وغير ذلك من سائر المعارف التى زكت أيام هذا الفيلسوف . وكانت فى نفسه رغبة فى الالمام بذلك كله فأخذ كثيراً من مبادىء الفلسفة عن شيوخ اللاذقية وانطاكية ودرس على أهله أولا وعلى شيوخ حلب كثيراً من معارف الملة الاسلامية التى ترجع فى جملتها الى علوم اللغة والدين . وكان تطلعه إلى تحقيق هذه الرغبة من أهم العوامل التى زحزحته عن منزلة البحترى والمتنبى وأضرابهم من شعراء الطبقة الأولى — ذلك بسبب تضمين الشعر لتلك المبادىء الفلسفية وما قصد اليه أبو العلاء فى لزومياته من مسائل الاجتماع وما خصَّ به فى غير موضع من شعره من تصوير لكثير من الخواطر التى تخامره وحده ولا تجد العواطف العامة فيها ما يلذّ لها ويصور انفعالاتها وما يعتريها من حب أو بغض أو ألم أوفرح أوغير ذلك — ولسنا نشك فى أن عزلة المعرى قد فوّتت عليه كثيراً مما يجب أن يلابسه الشاعر فجاء شعره غريباً فى المعنى وغريباً كذلك فى اللفظ والتركيب ، وكل ذلك ولاشك مظاهر وهن فى ملكة الشعر وأثر لتزاحم الملكات وتنازعها . ونحن نظن — قصداً للايجاز — أن القارىء لا يحتاج إلى أن نسوق له أمثلة من شعر المعرى لتكون بمثابة استشهاد على تقرير ما نلمحه فيه من آثار إضعاف الملكة فاللزوميات كلها وغير قليل من شعره يقع فيه مايعلن عن تخلفه عن استاذ المدرسة القديمة وحكيم الشعر (أبى الطيب المتنبى).

— ٥ —

هذا وليس يصعب على من له إلمامة بالأدب العربى عند المغاربة أن يستطلع أثر ذلك التزاحم فى ملكة الشعر عند الاندلسيين وظهور الصبغة الفقهية أو النحوية فيه ، إذ كان إحراز المناصب عند الاندلسيين قائماً على مبلغ إلمام الاديب وقدرته على حذق ألوان شتى من مسائل العلوم وفنونها . فكان شعراء الأندلسيين فقهاء ، وفقهاؤهم شعراء ، وهؤلاء مع ذلك قد حذقوا مسائل النحو ووقفوا على شذوذه ومكنونه . فقسمت لذلك الملكة إن قيل بوحدتها ، وتزاحمت الملكات إن قيل بتعددها ، ووقع فى شعرهم ما يدل على تأثير الملكات الأخرى من ذكر الغصب والاستيعاب فى شعر محمد البطليوسى كقوله :

غصبوا الصباحَ فقسموه خدودَا واستوعبوا قضب الاراك قدودَا

فهذا الغصب وذلك الاستيعاب كلاهما يكثر ورودُه وتكرُّره فى باب الفقه وأصوله. ومن أمثلة ما يُستشهد به فى هذا الباب قول القسطلى :

فقد تخفض الأسماء وهى سوا كنٌ ويعمل فى الفعل الصريح ضميرُ

فأنت ترى كذلك أن الخفض والاسم والسوا كن وعمل العاقل والفعل والضمير وغير ذلك مما يجرى كثيراً على ألسنة النحاة ويكثر وروده فى كتاباتهم وتصانيفهم.

والنتيجة التى أريد أن أنتهى اليها أن قصد الشاعر إلى دراسة مسائل العلم ونظريات الفلسفة مما يضعف ملكة الشعر فيه ومما يكسب شعره نحواً من التعقيد ومظهراً من مظاهر المعاظلة. ولا تنقاد له ما ينقاد لسليم الملكة من رقة فى اللفظ وروعة فى الخيال وتجديد وابتداع فى باب المعانى واستحداث للصور الرائعة المحبوبة وتصوير للانفعالات النفسية وشرح للعواطف وغير ذلك مما يحفل به الشعر والشعر الصحيح وما يستحق أن يسمى شعراً. ولعلنا نوفق إلى ذكر ماتتم به ملكة الشعر فى حديث تالٍ ؟

محمد قابيل

كورنى والتمثيل فى فرنسا

(ننشر هذه المقدمة لترجمة رواية هوراس التى نقلها الى اللغة العربية الدكتور احمد ضيف وذلك لما تحتويه من وصف عصر الشاعر كورنى وما كان هناك من أثر الحياة الاجتماعية فى عالم التمثيل. وسنظهر هذه الرواية فى عالم الأدب قريباً)

حياة كورنى

ولد بيير كورنى بمدينة رُوان « شمال فرنسا » فى اليوم السادس من شهر يونيو